تأثير الإسلام على أدب الرِّثاء

(تحليل دالية حسّان فى رثاء الرسول نموذجاً)

سيد أميرمحمود أنوار*
ناصر حسينى**

الملخص

كان الإسلام مؤثّراً على كلّ زوايا الحياة البشرية وغيّر العقائد والأفكار وجاء بمعان سامية فى كلّ الأمور بما فيها الشعر والرّثاء. وثمّة جوانب مهمّة من الأدب مُؤثَّرة بالإسلام تحتاج إلى مَن يجلو صدأ الإهمال عنها. وعندما رأيتُ التأثير الملحوظ للإسلام فى أدب الرّثاء يحدونى الأمل إلى إضافة مقال جديد فى هذا الباب. وعندما شرعت فى التعرّض للموضوع، وضعت نصب عينىّ أن تشمل الدراسة نظرة الشعراء الجاهليين إلى الدّهر والكون ومشكلة البقاء والفناء، ونظرة الشعراء الإسلاميين الذين تأثّروا بمبادئ الإسلام فى الموت والحياة. وبعد مقارنة وجيزة بين الرّثاء الجاهلى والرّثاء الإسلامى، تطرّقت إلى المراثى النبويّة وأتيت بأمثلة من بعض الشعراء ومن خلال مراثيهم بيّنتُ أثر الإسلام فى ألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم.

وقدّمت دراسة فنيّة على الداليّه الشهيرة لحسّان بن ثابت الأنصارى فى رثاء الرّسول بصفته شاعر النّبى المفضّل مصحوباً بتحليل فى المعنى واللفظ والأسلوب، راجياً أن تكون هذه الدراسة ساهمة فى أداء خدمة زهيدة للأدب العربى المبين ومُلقية الضوء على دالية حسّان فى رثاء خير الإنسان.

الكلمات‌الدليلية: المرثية، الأدب الجاهلى، الأدب الإسلامى، الإسلام، النبىّ، حسّان.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.
**. خريج جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات بطهران.
Naserhosayni@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٥/١٠هـ. ش تاريخ القبول: ١٣٨٩/١٠/٥هـ. ش

المقدمة

الرثاء من الموضوعات البارزة فی الشعر العربی ولاسیما الإسلامی، فقد بکی الشعراء من رحلوا عن دنیاهم، والرثاء بکاء متعمق فی القدم، منذ وجد الإنسان نفسه علی هذه المعمورة ووجد أمامه هذا المصیر المحزن الذی لا مفرّ منه، ولابدّ أن یصیر إلیه فیصبح غباراً وکأنّه لم یکن شیئاً.

وقد سلک الشعراء فی رثائهم ثلاثة سبل هی: الندب والتأبین والعزاء. أمّا النّدب فبکاء الأهل والأقارب حین أنشبت المنیة أظفارها منهم، فیئنّ الشاعر ویتفجّع من هول الإصابة ترنّح الذبیح، وتسیل دموعه مدراراً وتتدفّق کلمات الشاعر باکیة محزونة فیها لوعة القلب وحرقته، والأبیات بکاء مشجی کلّها آلام وحسرات، کأنّها تسیل من جروح فی القلوب.

وأمّا التأبین لیس بکاءً ولا نشیجاً کالندب بل هوأدنی إلی الثناء منه إلی الحزن والدمع وإذ یخر نجم لامع من سماء المجتمع، فیشید به الشعراء منوّهین بمنزلته السامیة فی الدین والأخلاق والأدب والسیاسة، وکأنّهم یریدون تصویر خسارة الناس فیه، فالشاعر یحاول التعبیر عن حزن الجماعة وتسجیل فضائل الفقید فی ذاکرة التاریخ.

وأما العزاء مرتبة فوق التأبین عقلیة والشاعر فی هذه المرتبة یتأمّل فی حقیقة الموت والحیاة وقد یصله هذا التفکیر فی جوهر الحیاة إلی معان فلسفیة وحکمیة عمیقة وهو یتطرّق إلی حکمة الوجود وفلسفة الخلود ویتذکّر أنّ الحیاة ظلّ لایدوم، وأنّ الدنیا إلی التباب وکلّ شیء مصیره الفناء، ولکن إذا جاء الإسلام غیر المقیاس والمیزان وحالت الأحوال ونسخت العقائد والأفکار وبقیم جدیدة سامیة قضی علی أفکار جاهلیة بکلّ ما فیها من کهانة وسحر وخرافة، وبذلک ارتقی عقل الإنسان، وأمعن النظر فی الکون والحیوان، وعرف بعد تأمّل أنّه لم یخلق عبثاً وأنّ الله الواحد هو الذی دبّره وأحکم نظامه، وأنّ خلود الإنسان فی الدنیا مستحیل، وإنّما الخلود فی الآخرة، إمّا فی نعیم الجنّة أو عذاب السعیر. (الشوری، ۱۹۹۵م: صص۵-۲۳؛ القط، ۱۹۷۹م؛ بشیر النعمة، ۱۹۹۷م)

کانت العرب فی جاهلیتها علی إرث من آبائهم، فی لغاتهم وآدابهم ونسائکهم وأفکارهم، فلمّا جاء الله عزّ وجلّ بالإسلام، حالت الأحوال، وتغیّرت الموازین. ففی

الجاهيّلة وقف الإنسان عند الموت وفكّر فيه، وانتهى إلى أنّه حقيقة محتومة، ومشرع لابّد من وروده، فالموت قدر لامفرّ منه وهو النهاية لكلّ ذى حياة، الفناء لكلّ شىء. ومن نتائج هذه الحتمية أنه شاع نوع من الجبرية العميقة فى نفوس الشعراء الجاهليين، وفشى اليأس من غاية الحياة فى مراثيهم. وكان من ثمار الشعور بحتمية الموت والفناء التهافت على لذّات الحياة ومتعها، فما دام الموت يترصّده فى كل خطوة، ومادامت الحياة ستنتهى إلى رمس مظلم فى صحراء مقفرة، فليتزوّد منها ما استطاع، وليغرق نفسه فى لذائذها ومباهجها؛ فقد لاتتاح له هناك حياة مثل هذه الحياة. ومادام هؤلاء لا يؤمنون بالبعث والحساب فقد ارتبطت قضية الخلود عندهم بطريق جهاد النّفس فى الحرب وإتلافها فى المروءة والكرم باعتبار أن الذكرى للإنسان عمر ثان. فالإنسان يبلى بلاء حسناً فى الحرب والنوال والثأر أو الكرم أو المروءة ليظفر بالخلود بعد الموت بترديد اسمه على ألسنة النّاس.

تلك كانت نظرة الجاهليين للموت والبعث والحشر. وعندما جاء الإسلام اتّضحت أمام الشاعر الجاهلى الّذى دخل الإسلام معالم الدين الجديد وتعاليمه، ممّا كان له أثر مباشر فى تعميق الشاعر عن حقيقة حياة الدّنيا ومتاعها الزائل، وما وراء هذه الحياة من موت وفناء ونشور وحساب وجزاء.

رسم القرآن الكريم والحديث الشريف صورة واضحة لهذه الحقيقة، ففى الإسلام فناء الدّنيا أمرٌ لا محالة واقع. ومن ثمّ وجب على الإنسان ألّا يغترّ بزخرفها وأنْ يعمل حساب يوم تُعْرض فيه أعمال الخلق على الخالق، ومن عمل صالحاً فنعم أجر الصالحين، ومن عمل سوءاً فجزاؤه من جنس عمله وجاء القرآن بالأمثال الفريدة والحكم المفيدة فى الحياة وزوّد الأدب العربى والمراثى بمعان جليلة رفيعة والمراد من الأمثال القرآنية هو: «عدّة من الآيات فى الذكر الحكيم التى أصبحت متداولة على ألسنة النّاس لبلاغتها السامية وانسجامها الكامل وبيانها العذب السلسل ومعناها العميق.» (فصلية الأدب المقارن، جامعة آزاد الإسلامية فرع جيرفت، العدد التاسع:١٦٤)

والأمثال القرآنية فى طوايا المراثى عديدة وهنا الأمثال التى تتطرّق إلى الموت الفناء والبعث والجزاء، وقد نرى فى المراثى التأثير الملحوظ من الأسلوب القرآنى الناصع

فی جوهرة المعانی وشاكلة الألفاظ، وشعراء الرثاء يتحدّثون عن حكمة الوجود وحلم الخلود ويتذكّرون أنّ كلَّ شیءٍ إلّا وجهه – عزّ وجلّ – لا يدوم، الموت مدرک الإنسان فی أیّ حال يكون والأستاذ الباحث علیرضا ميرزا محمد جاء ببعض من هذه الأمثال القرآنية فی مقاله، منها:

﴿أينَما تُوَلُّوا فثمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ (البقرة: ١١٥)، ﴿أينَما تَكُونُوا يدْرِكْكُم الموتُ ولَوكُنْتُم فی بُروجٍ مُشَيدَةٍ﴾ (النّساء: ٧٨)، ﴿ما عِنْدَكُمْ ينفَدُ ومَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾ (النّحل: ٩٦) ﴿أفَحَسَبْتُمْ أنّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ (المؤمنون: ١١٥)، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يحْسَبُه الظَّمْآنُ مَاءً﴾ (النّور: ٣٩)، ﴿كُلُّ شَیءٍ هَالِكٌ إلّا وَجْهَه﴾ (القصص: ٨٨)، ﴿نَحْنُ أقْرَبُ إليه مِن حَبْلِ الوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)، ﴿كُلُّ مَنْ عليها فَانٍ ويبْقَى وجْهُ رَبِّكَ ذو الجَلالِ والإكرام﴾ (الرّحمن: ٢٧-٢٦)، ﴿وهو مَعَكُمْ أينَمَا كُنْتُم﴾ (الحديد: ١٤)، ﴿ولا تقْنطُوا مِن رحمةِ اللهِ﴾ (الزّمر: ٥٣)، ﴿وَلا تَحْسَبنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فی سَبيلِ اللهِ أمواتاً بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩) (مجلة الأدب المقارن، جامعة آزاد الإسلامية فی جيرفت، العدد التاسع:١٨٣-١٦٦) وهكذا أثّرت المبادیء الإسلامية السّامية فی نفوس النّاس بما فيهم الشعراء. ونری صدی هذا التأثير بوضوح فی المراثی الإسلامية علی العموم ومرثية حسّان شاعر الرّسول علی الخصوص.

مراثی الرسول

إذا لحق النبی بجوار ربّه الذی اصطفاه وأفل شمس الرسالة، وتسرّب النبأ الفادح، وأظلمت آفاق الدنيا، وقد استحالت المدينة المنوّرة إلی بركان البكاء والحزن، وفزع المؤمنون لهذا النبأ العظيم، وهم لايصدقون موت النّبیّ (ص) وما نزلت السكينة علی قلوبهم، لولا هذه الآيات غير المذكورة فی القرآن الكريم مثل قوله تعالی: ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وَإنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزّمر: ٣٠) ﴿أفَإن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ* كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (الأنبياء: ٣٤)

وعمّ الناس الحزن، فضجّت أجواء المدينة بالنشيج والبكاء، وارتفعت أصوات الشعراء فی أرجاء الأرض، معبرةً عن مشاعر أصحابها الحزينة ومفصحة عن لوعة قلوبهم. وقد وصلت إلينا صور كثيرة من هذه الأشعار الباكية الحزينة. والشعر الذی بين أيدينا من

مراثى الرسول شعر العاطفة الخاصّة، المعبّر عن عظم المصيبة فى فقده وخسارة الأمّة بفراقه، فيرتفع صوت الشعر ليصوّر هول ذلک اليوم وفزع ذلک المصاب الجلل، فبادر الشعراء إلى رثائه، وكان الأنصار أسرع الناس إلى بكاء النبى، كما كانوا أسرع الناس إلى نصرته والدفاع عنه.

فحسّان بن ثابت يرثيه فى عدّة قصائد نرى فيها لوعته ووجده ويبكيه بعبارات حارقة مبكية وألفاظ محزنة مشحونة بالتحسّر والتفجّع ويصوّر نفسه وعيناه كأنّما كحلت بالسهر والأرق والدمع جزعاً على خير من وطئ الأرض الذى أصبح ثاوياً التراب فى يوم الإثنين فظلّ بعد وفاته متبلّداً، فهو يتمنّى ألا يولد ولايعيش بعد النبى راجياً أنْ تجمعه المنية مع النبى فى جنة الفردوس ويرسم لنا فداحة الأمر لأنصار الرسول، فيقول:

مـا بالُ عَينِـکَ لاتَنَـامُ كأنَّما ... كُحِلَتْ مَآقيها بِكُحْـلِ الْأَرْمَدِ
جَزَعاً عَلَى المَهْدِيِّ أصْبَحَ ثاوِياً ... يا خَيرَ مَنْ وَطِئَ الحَصَى لا تَبْعَدِ
بأَبى وأُمّى مَنْ شَـهِدْتُ وَفاتَهُ ... فِى يومِ الإثْنَينِ النَّبىُّ المُهْتَدى
أَ أُقِيـمُ بَعْدَکَ بِالْمَدينَـةِ بَينَهُم ... يا لَيتَنى صُبِّحْتُ سُـمَّ الأسْوَدِ

(الأنصارى، ١٩٨٠م: ١٤٧)

ولحسّان قصيدة شهيرة طويلة أخرى فى رثاء الرسول، مطلعها:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُـولِ ومَعْهَدٌ ... مُنِيرٌ وقَدْ تَعْفُوا الرُّسُومُ وتَهْمُدُ

(المرجع نفسه: ١٤٥)

أمّا كعب بن مالک فقد قلّ رثاءه للنّبىّ، كأنّ لسانه عقد بالفاجعة وكأنّ عبقريته فى إنشاء الشعر أصيبت بالجفاف. لكنّه رثى الرسول المبشِّر النذير الداعى إلى الله السراج المنير بقصيدة يقول فى بعض أبياتها:

يا عَيـنُ فَابْكى لِدَمـعٍ ذَرَى ... لِخَيـرِ الْبَريـةِ والمُصْطَفَـى
وبَكِّى الرَّسُـولَ وحُـقَّ البُكَا ... عَلَيهِ لَدَى الحَـرْبِ عِنْدَ اللِّقا
عَلَـى سَـيدٍ مَاجِـدٍ جَحْفَلٍ ... وخَيـرِ الأنَـامِ وخَيـرِ اللَّها
وكانَ بَشِـيرَاً لَنَـا مُنْـذِرَاً ... وَنُـورَاً لَنَا ضَـوْؤُهُ قَـدْ أضَا

فَأَنْقَذَنــا اللهُ فِــی نُــورِهِ وَنَجَّــی بِرَحمَتِــهِ مِــن لَظَی

(کعب بن مالک، ۱۹۶۵م: ۲۵۵)

وقد بکی الرسولَ شعراء من القبائل کعامر بن الطفیل یصوّر بکاء الأرض والسماء علی نور الحقّ ومنهاج الهدی:

بَکَــتِ الأَرْضُ والسَّــمَاءُ عَلَی النُّورِ الّذی کَانَ لِلْعِبادِ سِــرَاجَا

مَــن هُدینَا بِهِ إلی سُــبُلِ الحَقِّ وکُنَّــا لا نَعْــرِفُ الْمِنْهَاجَــا

(ابن سعد، ۱۳۲۲ق: ۹۲)

ولیس بغریب أنْ تساهم النساء الشواعر فی البکاء علی الرسول، والنساء کنّ قد تشارکن الشعراء فی أی فن من الفنون الشعریة ولا سیما فی الرثاء. و«النساء أشجی الناس قلوباً عند المصیبة وأشدّهن جزعاً علی هالک، لما رکّب الله عزّ وجلّ فی طبعهنّ من الخَور وضعف العزیمة.» (القیروانی، لاتا:۱۷۱)

وهکذا ساهمت النساء فی رثاء النبی، فالرسول کان یجلّ المرأة ویحسن إلیها، ویعطف علی وضعها، وینجیها من براثن الظلم والغیرة العمیاء والجاهلیة والإرهاق والوأد؛ ویشدّ بساعدها ویرتقاها إلی مستوی الرجل، کذلک لم یکن الرسول المرثی فرداً عادیاً أو ملکاً أو قائداً أو کریماً فحسبُ بل هو النبی المرسل الحبیب لله – عزّ وجلّ – وهو خاتم الرسل وسید الأنبیاء وشفیع البشر فی یوم المحشر وأشرف الخلائق، فهو بأی مرثیة حارقة باکیة خلیق فصفیة بنت عبدالمطلب عمّة الرسول عَبّرت عن حزنه بهذا المأساة الجلیل العظیم الذی وهن العظم وشاب الرأس منها بقصیدة منها:

ألا یا رَسُــولَ اللهِ کُنْــتَ رَجَاءَنا وکُنْتَ بِنَــا بَرّاً ولَــمْ تَکُ جافِیا

وکُنْــتَ رَحیمَــاً هَادیــاً ومُعلِّماً لِیبْکِ عَلَیکَ الْیومَ مَن کَانَ باکِیا

(ابن عبدالبرّ، ۱۹۳۹م: ۴۹)

وأما قصیدة السیدة فاطمة الزهراء فهی تتفجّر عاطفة ولوعة، فکلّ بیت فیها یقطر دمعاً بل دماً، فالحزن یجری فی قلبها وفؤادها، ویتمثل فی حرکاتها وسکناتها، بل فی کلّ بیت من أبیاتها، وفی رثاءها شارکت الطبیعة فاغبرّت آفاق السماء، وکوّرت الشمس، وأظلم النهار، واضطربت الأرضُ، حتّی أنّ الأرض شارکت المسلمین فی مصیبتهم فمالت

جوانبها ومادت تحت أقدام المسلمين، وفاطمة الزهراء قد عاشت ذات حمية والرسول لها جناح، فبعده أغضّتْ طرفها لأنّه قد مات خير فوارسها وسلاحها، حضرت المنية فتمكّنت جمر الغضا بجراحها، ويدعو من الله الصبر على ما حلّ بها لأنّه مات الرسول وانطفأ مصباحها. فتقول فى أبيات من مرثية للرسول:

إغْبَـرَّ آفَاقُ السَّـماءِ وكُوِّرَتْ ... شَـمْسُ النَّهَارِ وأَظْلَمَ العَصْرَانِ
فالأرضُ مِن بَعْـدِ النَّبيِّ كَئيبَةٌ ... أَسَـفَاً عَلَيـهِ كَثيـرَةَ الرَّجْفَانِ
فَلْيَبْكِهِ شَـرقُ البِـلادِ وغَربُها ... وَلْيبكِـهِ مُضَـرٌ وكُلُّ يمَانـى
ولْيَبْكِـهِ الطَّودُ المُعَظَّـمُ جَوُّهُ ... والْبَيتُ ذُو الأسْـتَارِ والْأَرْكَانِ
يا خَاتَمَ الرُّسُلِ المُبارَكَ صِنْوه ... صَلّى عَلَيـكَ مُنَـزِّلُ القُرْآنِ

(القيروانى، لاتا:١٧٢)

ومِن هذهِ المراثى فى الرَّسول مرثية حسّان الداليّة الشهيرة الّتى امتازَت باللوعَة والبراعَة ونحنُ نُريدُ أن نُحَلّلها تحليلاً فنيّاً لكى يظهر تأثير الإسلام فيها ولهذا نرى من الضرورى أن نأتى بها كامِلة ونفَسِّرها تبييناً للقارئ الكريم.

رثاء الرسول[١]

١. بِطَيْبَـةَ رَسْـمٌ لِلرَّسُـولِ ومَعْهَـدٌ ... مُنِيـرٌ وقَـدْ تَعْفُـوا الرُّسُـومُ وتَهْمُدُ
٢. ولا تَمْحى الآياتُ مِنْ دارِ حُرمَةٍ ... بِهَا مِنْبَـرُ الْهادِى الَّـذِى كَانَ يَصْعَدُ
٣. وواضِـحُ آيـاتٍ وباقـى مَعالِمٍ ... ورَبْـعٌ لَـهُ فِيـهِ مُصَلّـى ومَسْـجِدُ
٤. بِهـا حُجُراتٌ كانَ يَنْزِلُ وَسْـطَهَا ... مِـنَ اللهِ نُـورٌ يسْـتَضَاءُ ويوقَـدُ
٥. مَعالِـمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهدِ آيها ... أَتَاهـا الْبِلَى فـالآىُ مِنْهـا تَتَجَدَّدُ
٦. عَرفْتُ بِها رَسْـمَ الرَّسولِ وعَهْدَهُ ... وقَبـراً بِـهِ وَارَاه فى التُّـرْبِ مُلْحَدُ
٧. ظَلِلْتُ بِها أَبْكِى الرَّسولَ فَأَسْعَدَتْ ... عُيـونٌ ومِثلاهـا مِنَ الجَفْنِ تُسْـعِدُ

١. (من الطويل الثانى: فعولن مفاعيلن فعول مفاعلن)

٨. تَذَكَّـرُ آلاءَ الرَّسـولِ ومَـا أرَى ... لَهَـا مُحصِيـاً نَفْسِـي فَنَفسِـي تَبَلَّدُ
٩. مُفَجَّعَـةً قَـدْ شَـفَّها فَقْـدُ أحْمَدٍ ... فَظَلَّـتْ لآلاءِ الرَّسـولِ تُعَـدِّدُ
١٠. ومَـا بَلَغَتْ مِنْ كُلِّ أمْرٍ عَشِـيرَهُ ... ولَكِـنَّ نَفسِـي بَعْضَ مَا فِيـهِ تَحْمَدُ
١١. أطالَتْ وَقُوفاً تَذْرِفُ الْعَينُ جُهْدَها ... عَلَـى طَلَـلِ الْقَبرِ الَّذِي فِيـهِ أحمَدُ
١٢. فَبُورِكْتَ يا قَبرَ الرسولِ وبُورِكَتْ ... بِـلادٌ ثَـوَى فِيها الرَّشِـيدُ المُسَـدَّدُ
١٣. وبُورِكَ لَحـدٌ مِنْكَ ضُمِّنَ طَيباً ... عَلَيـهِ بَنَـاءٌ مِـن صَفِيـحٍ مُنَضَّـدُ
١٤. تَهِيـلُ عَلَيهِ التُّـربَ أيدٍ وأعينٌ ... عَلَيـهِ وقَـدْ غَـارَتْ بذلِكَ أسْـعُدُ
١٥. لَقَدْ غَيبُـوا حِلماً وعِلْمَاً ورَحْمَةً ... عَشِـيةَ عَلُّـوهُ الثَّـرَى لايوَسَّـدُ
١٦. وراحُوا بِحُـزنٍ لَيسَ فِيهِمْ نَبِيهُم ... وقَـدْ وَهَنَـتْ مِنْهُمْ ظُهُـورٌ وأعْضُدُ
١٧. يبَكُّونَ مَن تَبْكِي السَّماواتُ يومَهُ ... ومَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأرضُ، فَالنَّاسُ أكْمَدُ
١٨. وهَلْ عَدَلَتْ يومـاً رَزِيةُ هالِكٍ ... رَزِيـةَ يـومِ مـاتَ فيـهِ مُحَمَّـدُ
١٩. تَقَطَّـعَ فيه مُنْزَلُ الوَحـيِ عَنْهُمْ ... وقَـدْ كانَ ذَا نـورٍ يغـورُ وينْجِـدُ
٢٠. يدُلُّ عَلَى الرَّحْمانِ مَن يقْتَدِي بِهِ ... وينْقِـذُ مِن هَـولِ الخَزايا ويرشِـدُ
٢١. إمـامٌ لَهُمْ يهْدِيهِـمُ الحَقَّ جاهِداً ... مُعَلِّـمُ صِـدْقٍ إنْ يطِيعُوهُ يسْـعَدُوا
٢٢. عَفُو عن الـزَّلّاتِ يقْبَلُ عُذْرَهُمْ ... وإنْ يحْسِـنُوا فـاللهُ بِالْخَيـرِ أجْوَدُ
٢٣. وإنْ نـابَ أمرٌ لَمْ يقُومُوا بِحَمْدِهِ ... فَمِـنْ عِنـدِهِ تَيْسِـيرُ مَـا يتَشَـدَّدُ
٢٤. فَبَيناهُـمْ فِـي نِعمـةِ اللهِ بَينَهُـمْ ... دَلِيـلٌ بِـهِ نَهْـجُ الطَّرِيقـةِ يقصَـدُ
٢٥. عَزِيزٌ عَلَيهِ أنْ يحِيدوا عَنِ الهُدَى ... حرِيصٌ عَلَى أنْ يسْـتَقِيمُوا ويهْتَدُوا
٢٦. عَطُوفٌ عَلَيهِـم لا يثَنِّي جَناحَهُ ... إلَـى كَنَـفٍ يحْنُـو عَلَيهِـمْ ويمْهِدُ
٢٧. فَبَينـا هُمُ فِي ذلِكَ النُّورِ إذْ غَدا ... إلى نُورِهِمْ سَـهْمٌ مِن الموتِ مُقْصِدُ
٢٨. فَأصْبَـحَ مَحموداً إلى اللهِ راجِعاً ... يبَكِّيـهِ جَفـنُ المُرْسَـلاتِ ويحْمَدُ
٢٩. وأمْسَتْ بِلادُ الْحَرَمِ وَحْشاً بِقاعُهَا ... لِغَيبَـةِ مـا كانَ مِـنَ الْوَحْـيِ تَعْهَدُ
٣٠. قِفاراً سِوى مَعْمورةِ اللَّحْدِ ضَافَها ... فَقِيـدٌ يبَكِّيـهِ بَـلاطٌ وغَرقَـدُ
٣١. ومَسْـجِدُهُ فَالْمُوحِشـاتُ لِفَقْدِهِ ... خَـلاءٌ لَـهُ فِيـهِ مَقـامٌ ومَقْعَـدُ
٣٢. وبِالْجَمْرَةِ الْكُبرى لَهُ ثُمَّ أوْحَشَتْ ... دِيـارٌ وعَرَصـاتٌ ورَبْـعٌ ومَوْلِـدُ

٣٣. فَبَكِّى رَسـولَ اللهِ يا عينُ عَبْرَةً وَلا يعْرِفَنْـكِ الدَّهْـرَ دَمْعُكِ يجمَدُ
٣٤. ومَا لَكِ لا تَبْكِينَ ذا النِّعْمَةِ الَّتِى عَلَـى النـاسِ مِنْهـا سـابِغٌ يتَغَمَّـدُ
٣٥. فَجُـودى عَلَيهِ بالدُّمُوعِ وأعْوِلى لِفَقْـدِ الَّـذى لا مِثْلُـهُ الدَّهـرَ يوجَدُ
٣٦. ومَـا فَقَدَ المَاضُـونَ مِثلَ مُحَمَّدٍ ولا مِثْلُـهُ حَتَّـى القِيامَـةِ يفْقَـدُ
٣٧. أعَـفَّ وأوْفَـى ذِمّـةً بَعـدَ ذِمّةٍ وأقْـرَبَ مِنـهُ نائـلاً لا يَنَكَّـدُ
٣٨. وأبْـذَلَ مِنْـهُ لِلطَّرِيـفِ وتَالِـدٍ إذا ضَـنَّ مُعْطـاءٌ بِمـا كانَ يتْلَـدُ
٣٩. وأكْرَمَ حَياً فى الْبُيوتِ إذا انْتَمَى وأكـرَمَ جَـدّاً أبْطَحِيّـاً يسَـوَّدُ
٤٠. وأمْنَـعُ ذِرْوَاتٍ وأثْبَتَ فى الْعُلَى دَعائِـمَ عِـزٍّ شـاهِقاتٍ تُشَـيدُ
٤١. وأثْبَتَ فَرعاً فـى الفُرُوعِ ومَنْبَتاً وعُوداً غَـداةَ الْمُـزْنِ فَالْعُـودُ أغْيَدُ
٤٢. رَبَـاهُ وَليـداً فَاسْـتَتَمَّ تَمامَـهُ عَلَـى أكْـرَمِ الْخَيـراتِ رَبٌّ مُمَجَّدٌ
٤٣. تَنَاهَـتْ وَصاةُ الْمُسـلِمينَ بِكَفِّهِ فَـلاَ الْعِلمُ مَحبُوسٌ ولا الـرَّأىُ يَنْفَدُ
٤٤. أقُـولُ ولا يلْفَـى لِقَوْلِى عائِبٌ مِـنَ النّـاسِ إلاّ عَازِبُ الْعَقـلِ مُبْعَدُ
٤٥. ولَيـسَ هَوائى نازِعـاً عَن ثَنائِهِ لَعَلِّـى بِـهِ فـى جَنَّـةِ الْخُلْـدِ أخْلُدُ
٤٦. مَعَ المُصْطَفى أرْجُو بِذاكَ جِوارَهُ وفى نَيـلِ ذاكَ الْيومِ أسْـعَى وأجْهَدُ

(الأنصارى، ١٩٨٠م: ١٤٥)

تحليل المعنى

بأرضِ طَيبَةَ أثرٌ ومنزلٌ للرسولِ (صلوات الله عليه) وهذا المنزلُ ينيرُ فى حالة أنّ الرسومَ والآثارَ تندرسُ وتصبحُ أرضاً هامدةً كأنّها لم يكنْ بها حياةٌ. لا تَعفُو العلاماتُ من دار الحرمةِ والقداسةِ، وبهذه الدّارِ المنبرُ الذى كان يصعدُه الهادى (صلوات الله عليه). وبها علاماتٌ واضحةٌ ومعالمُ باقيةٌ وربعٌ للرّسولِ ومسجدٌ. وبها منازلُ كان ينزلُها الرسولُ الَّذى هو نورٌ من الله، ويطلَبُ من هذا النور ضوءٌ ويوقَدُ. وفيها معاهدُ لم تغيرْ علاماتُها وإنْ أتى عليها البِلَى، فالآياتُ من الذكرِ الحكيمِ تتجدَّد فى هذه المنازلِ بتلاوتِها.

عرف الشاعر بهذه المعاهدِ رسمَ الرسولِ وعهدَه وقبراً وارى لحده النبىَّ فى التُّرابِ. مازال يبكى فى هذه المنازلِ على وفاةِ الرَّسولِ، فأعانته عيونه بسيلانِ الدّموعِ، وجديرٌ بعينه أن تساعدَه بتزارفِ الدموعِ. يتذكّرُ نعمَ الرسولِ فيحاولُ إحصاءَها فيراها لا تُحصى

كثرةً ويرى نفسه فى حيرةٍ. نفسه موجعةٌ مؤلمةٌ لهفانُ على فاجعةِ وفاة الرسولِ ويضمرها فقدُ أحمدَ وهزلَها، فظلّلتْ تُحصى نِعمَ الرّسولِ وبركاته. وما بلغتْ فى كلِّ أمرٍ عشرَه ولكنّ تحمدُ بعضَ ما فى كلِّ أمرٍ. وأطال الشاعر وقوفاً على طللِ القبرِ الذى فيه الرسولُ والعينُ تجرى الدموعَ بكلِّ جُهدِها وتعطى كلَّ ما لديها من العبراتِ.

يخاطب الشاعر القبر ويقولُ: يا قبرَ الرسول جَعَلَک اللهُ مباركاً وأدامَ لکَ التمجيدَ والكرامةَ، وبُوركَتْ بلادٌ أقامَ فيها الرسولُ الهادى الرشيدُ الذى أعطاهُ اللهُ السِّدادَ والرّشادَ. وبُوركَ لحدٌ ضُمِّنَ نبياً ذا الفضلِ والخير.

ويشير إلى تدفين الرّسول قائلاً: وفى الوقتِ الذى تهيل الأيدى الترابَ على جسمه المباركِ تجرى الأعينُ الدموعَ عليه وتذرفُها مدراراً. ولقد دفنوا حلماً وعلماً ورحمةً عشاءَ عَلَّوا جسمَه الطاهرَ الترابَ إذ لا متّكأً ولا مخدّةَ. دفنوا نبيهم وجاؤوا بحزنٍ ومأتمٍ ليس نبيهم بينَهم ليشاطرَهم فى الأحزانِ والأشجانِ وقد ضعفتْ ظهورهم ووهنت أعضدهم لشدة هذه المصيبة الفادحة. يبكونَ بكاءً شديداً لفقدِ النبى الذى تبكى عليه السمواتُ والأرضُ يومَ استأثرَ اللهُ به، ومَن قَد بكتْه السماواتُ والأرضُ حزناً على فقدِه، فالنّاسُ أشدُّ حزناً وغمّاً على وفاته.وما ساوتْ يوماً مصيبةُ ميتٍ مصيبةَ يومَ تُوفِّى فيه رسولُ اللهِ.

فى هذا اليومِ تقطّعَ النبىُّ الذى هو منزل الوحى عنهم وقد كانَ النبىُّ ذا نورٍ ثاقبٍ يبلغُ جميعَ الأمكنةِ بما فيها من أرض منخفضة وجبال مرتفعة. والنبى يُرشِدُ مَن يتبعُه ويجعله قدوةً إلى الرحمان سبحانه وينقذُه من عاقبةِ الكفر والضلالِ والشقاءِ فى الدنيا والعذابِ فى الآخرةِ. وهو إمامٌ لهم ويهديهم إلى سبيل الرَّشادِ والحقّ باذلاً مجهودَه، وهو معلمٌ صادقُ القولِ والفعلِ لهم، وإن يطيعوه يسعدوا. وهو كثيرُ التجاوزِ عن الخطيئاتِ وهو يقبلُ عذرهم ويتركُ العقابَ عليهم شفقةً، وإن يفعلوا الأعمال الحسنةَ ويتركوا الأعمالَ السيئةَ فاللهُ يجزيهم بحسناتهم وهو أجودُ بالخير. وإن نابتْهُم نائبةٌ، فإنّ رسولَ اللهِ كان يسهّلُها ويكشفُ غَمَّتَها وعنده تيسيرُ ما يتصلَّبُ.

بينَما هم فى نعمةِ اللهِ مغروقونَ وهذه النعمةُ وجودُ دليلٍ به يقصدُ وضحُ الطريقِ... إذ استأثرَ اللهُ بالرَّسول.

وعزيزٌ على النبيّ أن تحيدَ أمَّتُهُ عن الهُدى والصوابِ، وهو حريصٌ على استقامتِهم على سبيلِ الحقّ واهتداءِهم على مهجّة الطريقِ. النبيّ مشفقٌ عليهم، بارٌّ بهم، وهو يحنو عليهم ويرحمُهم. فبينما هم يتمتّعون بنعمة وجودِه ويعيشونَ فى ضوء ذلك النور البهيّ بينهم، إذ ذَهَب إلى نورهم بالغداةِ سهمٌ مصيبٌ من الموت فأخمدَ نورَهم وكدّرَ عيشَهم. فأصبحَ الرسولُ راجعاً إلى الله محموداً فى حالةٍ تَبكى عليه أعينُ الملائكةِ بكاءً وتحمدهُ حمداً. وأمستْ بلادُ مكةَ وما اتّصل بها من الحرمِ بقاعُها موحشةً لانقطاعِ الوحى الذى كانتْ تعهدُه عنها لغيبةِ الرسول. مُقفرةً موحشةً ما عدا قبراً نزلَ به الفقيدُ. ويبكى عليه البلاطُ والفرقدُ ومسجدهُ لفقدها إياه، وله قيامٌ وقعودٌ فى هذه الأمكنةِ قبلَ وفاتِه. وكذلك أقفرتْ منه وأوحشتْ ديارٌ وعرصاتٌ بالجمرةِ الكبرى وربعٌ ومولدٌ.

فحسّان يخاطب عينه، ويقول: فاسْفحى يا عينى على رسولِ اللهِ عبرةً بعد عبرةٍ ولستُ أظنُّ دمعَكِ يجمدُ طول الدهرِ، بل ينصَبُّ على فراقِ الرسولِ. ويا عينُ ما لكِ لا تبكينَ على الرسولِ المُنعمِ الذى نعمُه على الناس كاملةٌ تامّةٌ يغمرُ كلَّ أحدٍ ويسترُ كلَّ فقيرٍ معوزٍ. يا عينُ فاجْرى الدموعَ الهاطلاتِ على فراقه، وجودى عليه بالبكاءِ والعويل لفقدِ الحبيبِ الذى لا يأتى الدهرُ بمثله.

وما فقدتْ الأممُ الغابرةُ أحداً مثلَ محمدٍ ولا يفقدُ مثلهُ حتّى يومِ القيامةِ. وما فقدَ الدهرُ أعفَّ خلقاً وأوفى عهداً وأقربُ عطاءً غيرَ منكّدٍ ونائلاً غير قليلٍ منه. وما فقدَ الدهرُ أبذلَ منه للمال المكتسبِ والموروثِ إذا بخلَ الكريمُ المعطاءُ بماله. وأكرمَ حياء فى الأحياء إذا انتسب وأكرمَ جدّاً أبطحياً يعطى سيادةً. وأمنعَ شموخاً، وأثبتَ دعائمَ عزٍّ ومجدٍ. وأثبتَ فرعاً فى الفروع وأحكمَ منبتاً وعوداً من الرسول غداةَ يأتى السماءُ بالمطر، وعودُ الرسولِ أكثرُ نعومةً.

ويشير حسّانُ إلى حديثِ النبى صلوات الله عليه: «عَلَيه أدَّبَنى فأحسنَ تأديبى» ويقول: رباهُ اللهُ المُعَظَّمُ صغيراً فطيماً فأتَمَّ تأديبَه وأكملَ كمالَه على أكرمِ الخيراتِ. إذ إنَّ رسولَ اللهِ أدَّبه ربُّهُ فلابُدَّ أن كان المسلمونَ يتلقّون من الرسولِ علما لا علمَ بعدَه لأنَّ العلوم كانتْ فى قبضةِ يده، ويتعلّمون منه آراء لايأتيها الباطل ولا يعرضُها الخطأُ، وفى نهاية مرثيته يذكرُ مكارمَ أخلاقه فيها ولايوجَدُ عائبٌ من النّاس يلومُه عليها إلاّ ذو هواءٍ

وحلوم وعقول ناقصة. ويسألُ برثائه جوارَه، ويسعى لنيلِ ذلک اليومِ. وليس بنازعٍ حبّه عن ثنائِه، لعلّ بثناءِهِ أصبح مُخَلَّداً فی جنّةِ الخُلْدِ.

دراسة فنية للقصيدة

مطلع القصيدة: قد حرص حسّان حرصاً كبيراً على تجويد مطلع قصيدته واختيار ألفاظها وتركيز معانيها وتجديد موسيقاها، ويكون المطلع حلواً سهلاً، وفخماً جزلاً بعيداً عن التعقيد؛ فنافذة القصيدة مستشفّة من خلالها على ما بداخلها، وموحية بموضوع القصيدة ومبينة عن مقصد الشاعر فی قصيدته. وفی مطلع هذه القصيدة نوع من الإبداع والابتكار فی وضع المطلع الغزلی الطللی لقصيدة قيلت فی الرثاء، وفی إدماج فن الرثاء بالغزل، لأنّ المراثی الشعرية قبل الإسلام قد كانت تستهلّ على الأغلب بأنواع محدّدة من المطالع، على أنّ أغلبها كانت تفتتح بالمطالع البكائية من مخاطبة العين ووصف الدموع، وطلب الثأر وإظهار الحزن وشكوى الدهر على سبيل المثال مطلع مرثية الخنساء:

ألا يـا عَيـنِ فَانْهَمِـرى بِغُـدرٍ وفِيضِـى فَيضَـةً مِـنْ غَيـرِ نَـزْرِ

(الخنساء، ۲۰۰۰م: ۴۴)

ومطلع مرثية أوس بن حَجَر:

أيتُهـا النَّفـسُ أجمِلِـی جَزَعَـاً إنَّ الّـذی تَحْذَريـنَ قَـدْ وَقَعَـا

(أوس بن حجر، ۲۰۰۱م: ۴۸)

ومطلع مرثية امرئ القيس:

ألاَ يـا عَيـنُ بَكِّـی لِی شَـنِينَا وبَكِّـی لِـی المُلُـوکَ الذَّاهِبِينَا

(امرؤ القيس، ۲۰۰۱م: ۱۵۱)

ويمكن لنا استماع أصداء الوقوف بالربع والأطلال فی مطالع المعلّقات فی هذه القصيدة ولكنّ استخدام هذا المطلع للمرثية فيه الجدة والخلق. فالمطلع بكائی ذو عاطفة جياشة وصورة مبتكرة موحية، والبكاء ليس للحبيبات الظعينات اللّواتی ترحلن إلى منتجع آخر، بل البكاءُ لحبيب الله الذی ارتحل إلى جوار ربّه الكريم ولا عودة لرحيله.

فحسّان فی هذا المطلع يشير إلى دار الحبيب ويستهلّ مرثيته «بِطَيبَةَ رسمٌ لِلرَّسولِ»

وطَيبَةُ ملتقى زيارته مع حبيبه والحبيب هو الذى سمّاها بهذا الإسم. ويعبّر عن حبيبه «بالرسول» إذعاناً له بالرسالة ويكون معهد الرسول منيراً فالإنارة والرسول وطيبة كلمات توحى بمغزى المرثية. ويشير الشاعر إلى تميز رسوم الرسول من رسوم الظعائن بالإنارة وعدم الاندراس. ومزج المطلع التقليدى بالمطلع الإسلامى تنمّ عن قدرة شعرية فى تطويع الأساليب التقليدية وتوظيفها توظيفاً جيداً يخدم المرثية ولايكون عبئاً عليها. وذلک باستحداث معان وصور جديدة، وظهور المعنى الإسلامى فى مطلع القصيدة. واستجداد فاتحة القصيدة بهذه المعانى السامية يعبّر عن روح التقوى والفكر والإبداع فى حسّان.

أما الخاتمة أو المقطع فاشترط لها أن تكوّن من معان مؤسية، وعلى هذا النهج جاء عدد من المعانى المؤسية فى مراثى صدر الإسلام على صورة الدعاء حيث يدعو الشاعر للمرثى فى الخاتمة. ومن ذلک الدعاء من حسّان فى ختام قصيدة له فى رثاء النّبىّ:

صَلّى الإلهُ ومَن يحُفُّ بعَرشِــه والطَّيبونَ عَلَى المُبَارَکِ الأحْمَدِ

ولكنّ فى هذه القصيدة يدعو الشاعر لنفسه لا للمرثى، لأنّ المرثى هو خاتم النبيين وأشرف المرسلين وشفيع يوم الدين وهو مطهّر على خلق عظيم، وهو المصطفى والحبيب والرسول لله. والشاعر يتعلّق هواه بثنائه لعلّه أصبح مخلّداً فى جنةِ الخلد مع المصطفى ويرجو بثنائه له جواره، ويسعى فى نيل ذلک المقام قائلاً:

ولَيسَ هَوائى نازِعَــاً عَن ثَنائِهِ لَعَلِّــى بِهِ فى جَنَّــةِ الْخُلْدِ أخْلَدُ
مَعَ المُصْطَفَى أرْجُو بِذاکَ جَوَارَهُ وفى نَيلِ ذَلِکَ الْيومَ أسْعَى وأجْهَدُ

(الأنصارى، ۱۹۸۰م: ۱۵۳)

ويتعزّى الشاعر حينما يذكر فى آخر مرثيته مصير المرثى، والعقيدة الإسلامية فتحت الآفاق أمام النفس البشرية وأخرجتها من طوق الفنا الضيق، فحسّان مطمئن موقن تماماً أنّ النفس الصالحة للنبى مصيرها الجنّة ولايرى باعثاً هنا إلى البكاء والعويل، وإذ شتّان بين من هو فى النعيم مخلّد وبين من هو فى السعير مقيم.

فالخاتمة متناسبة متوافقة مع المطلع وهذا التلائم يزداد القصيدة جماليةً ووحدةً فكريةً، وتحتوى الخاتمة على أساليب جديدة، وتعكس مقدرة الشاعر وحرصه على

تماسک مرثیته واکتمال جوانبها الفکریة والفنیة.

وأمّا المقدمة: فقد کانت المقدمتان الغزلیة والطللیة تمثّلان أغلب مقدّمات مراثی ما قبل الإسلام، ولعلّهما النوعان الفریدان، ومراثی صدر الإسلام أوفر حظّاً من سابقتها، فهناک میل لقسم من الشعراء إلی استخدامها مع شیءٍ من الإبداع، ففی هذه المرثیة نجد الأطلال فی المقدمة إلاّ أنّها لیست أطلال امرأة ظعینة أو قوم مرتحلة، إنّها أطلال من نوع خاصّ، إنّها مدینة الرسول (ص)، وفیها آثاره التی بناها هو وسعی فی إعمارها، ولما وافته المنیة وغادرها لم تکن الرسوم لتنمحی بل الآیات واضحة والمعالم باقیة تتجدّد دوماً وهی آثار حضاریة حیة.

إنّ وقوف الشاعر علی هذه الأطلال لیس وقوفاً تقلیدیاً، بل هو من صمیم فکرة المرثیة الإسلامیة فالمسجد والمنبر والحجرات والمصلّی وغیرها کلّها رموز للدین الإسلامی الحنیف. وکأنّ الشاعر قد أنسی تأریخ هذه المدینة واسمها القدیم ومعالمها العریق، فتأریخ بناء هذه الدیار تأریخ حلول الحبیب بها واسمها طَیبَة لأنّها تطیب بالرسول والحبیب هو حبیب الله والشاعر والمسلمین جمیعاً، ولهذا حسّان یبین حزنه وحزن المسلمین علی ارتحال الحبیب والأمر لیس رحلةً عادیة بل هو وفاة النبیّ وانقطاع الوحی واختتام المرسلین. وهکذا نری أنّ شاعر الرسول وظّف الطلل فی خدمة مرثیته ولم یکن مقلّداً وأطلاله تختلف عن أطلال الشعراء الجاهلیین.

وأما طول القصیدة: فإنّ المراثی الشعریة فی صدر الإسلام قصیرة، وإنّ طول الغالبیة العظمی من المراثی فی العهد الإسلامی الأول یتراوح بین أربعة إلی عشرة أبیات، وطول المرثیة یکون من المسائل المهمة فی استیعاب جوانب التجربة الشعوریة المتکاملة ونقل شدّة الألم وانتقال العاطفة والحزن المکتوم فی طوایا قلب الشاعر، ولکنّ المراثی المشهورة التی تُعدّ من عیون المراثی لجودتها وقوّتها فی صدق العاطفة وانتقالها هی المراثی الطوال فبلغت مرثیة حسّان هذه فی الرسول (۴۶) بیتاً، ومرثیة أبی ذؤیب الهذلی فی أبنائه (۶۸) بیتاً، ومطلعها:

أ مِــنَ المَنــونِ ورَیبِهــا تَتَوَجَّعُ والدَّهرُ لَیــسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ یجْزَعُ

(الضبی، ۱۹۹۵م : ۴۱۱)

ومرثية مُتمِّم بن نويرة فى أخيه تقع فى (٥٧) بيتاً ومطلعها:[١]

لَعَمْــرى، وما دَهرى بتأبينِ مالِكٍ ولا جَــزِعٌ مِمَّا أَصَــابَ فَأَوْجَعَا

ومرثية حسّان تُعدُّ أطول قصيدة فى ديوانه، وهذه المرثية التى بلغت هذا المبلغ من الطول قد بُنيت على فكرة أراد الشاعر من خلالها تسجيل موقف الحزن والألم الذى عمَّ المسلمين بعد موت النبىّ.

وأما الوحدة الفنية فى القصيدة: فنحن نجد فى هذه القصيدة هيمنة إحساس واحد والحزن المنبعث عن فداحة فقد الرسول ونحسّ شعوراً واحداً أو رؤية نفسية ذات لون محدّد، والصور الشعرية بكلّ أشكالها المجازية والحقيقية وسيلة الشاعر لتجسيد هذا الإحساس بالحزن والألم. وحسّان يحقّق هذه الوحدة فى بنائه للقصيدة بأن يرتّب موضوعاته ترتيباً على النمو المطرّد، بحيث تتكامل أجزاء القصيدة فى توضيح عاطفتها المسيطرة واتجاهها الموحّد، حتّى إذا قرأنا القصيدة ازددنا بالتدريج دخولاً فى عاطفته وبصراً باتجاهها، فتركت المرثية فى النهاية أثراً فنياً موحّداً لم نشعر فيه بخلل أو تناقض أو انتكاس من الشاعر عن اتجاهه الذى كان يتّخذه.[٢] وهكذا فإنّ هذه المرثية قامت على أساس تنمية الشاعر لأقسامها تنمية عضوية بحيث نشأ كلّ جزء من سابقه نشوءً طبيعياً مقنعاً، واستدعى الجزء الذى يليه استدعاءً حتمياً حتّى تكاملته أجزاء المرثية التى شملتها عاطفة واحدة، وطبعت فى نفس الملتقى إحساساً واحداً، فكان لها أثر جمالى واحد.

أما اللغة: وقد أثر الإسلام فى المراثى، فقد اكتسبت المرثية لغات كثيرة، فعقيدة الإسلام بيوم الحساب والحياة الباقية فتحت أفقاً آخر للشاعر يشرب من منهلها فشرع يتحدث عن الجنّة ونعيمها ودرجاتها، والنار وسعيرها ودركاتها، فالصلاة، والثواب والرحمة والشفاعة، والملائكة والعرش والحشر، وغير ذلك ممّا لا يخفى أثره، وإنّ الجهاد الإسلامى ساهم فى شيوع الألفاظ الإسلامية الكثيرة تتعلق بالموت، وإنّ التوجّه الإسلامى أثر كبيراً فى شيوع الألفاظ المدنية والحضارية. وفى المقابل نرى تراجعاً

١. انظروا إلى القصيدة بكاملها فى المجانى الحديثة، فؤاد أفرام البستانى، المجلد الثانى، ص ٦٣.
٢. للمزيد من الاطلاع على الوحدة الفنية فى القصيدة انظروا إلى: النويهى: محمد. ١٩٩٩م.

واضحاً وانحساراً بيناً فی مفردات المرثية الجاهلية، وبالإسلام هدمت أسطورة الدهر، وشكوى من منونها وريبها، كما أنّ العرب تخلّصوا من الهام والصدى والبلية، وحلّت محلّها مفردات الصبر والقضاء والقدر والإيمان. وإنّ عموم الشعر فی صدر الإسلام قد اتّجه نحو الليونة والسهولة والوضوح متأثراً بأسلوب القرآن الكريم الساطع منعكساً الحياة المدنية الجديدة.

ففی هذه المرثية نری تحولاً بيناً فی لغة الشعر من حيث الإغراب والقوّة إذ أنّ المرثية قد اتّجهت نحو الليونة والوضوح بعيداً عن الإغراب والتعقيد مثلاً حسّان جاء بألفاظ سهلة من المعانی الإسلامية فی قوله:

بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ ينْزِلُ وَسْطَها ... مِنَ اللهِ نُورٌ يسْتَضَاءُ ويوقَدُ
لَقَدْ غَيبُوا حِلمَاً وعِلْمَاً ورَحْمَةً ... عَشِيةً عَلُّوهُ الثَّرَی لايوَسَّدُ
عَفُو عن الزَّلّاتِ يقْبَلُ عُذْرَهُمْ ... وإنْ يحْسِنُوا فَاللهِ بِالْخَيرِ أجْوَدُ
ومَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثلَ مُحَمَّدٍ ... ولا مِثْلُهُ حَتَّی القِيامَةِ يفْقَدُ

فالأبيات فی نهاية السهولة والقصيدة مشحونة باللغات الإسلامية السامية كالرسول، والآيات، ودار الحرمة، ومنبر الهادی، والمصلّی، ونور الله، والمسجد، وأحمد، والرشيد المسدّد، والنبیّ، والرحمة، والرحمان، ومنزل الوحی، والحمد، ومحمد، ومحمود، والهدی، والإهتداء، والنور، والجمرة الكبری، والعرصات، والقيامة، والأبطحیّ، والجنة، والخلد، والمصطفی. اللغات السهلة المجندّة، والمعانی السامية، والعبارات المبكية والمضامين المثيرة للحزن والمجلبة للدمع فی المرثية تعمل علی إشاعة جو من التفاعل العاطفی المباشر بين المرثية والقارىء.

وأمّا أسلوب القصيدة: فالأسلوب هو الطريقة فی نظم الشعر والنثر، وإنّه المنوال الذی ينسج التراكيب، أو القالب الذی يفرغ فيه. و«إنَّ تأليف النصّ الأدبی يحتاج إلی قدرة فنية كبيرة لإيصال الرسالة الأدبية إلی القارئ. وهذه القدرة الفنية مكنونة فی أسلوب الأديب.» (فصلية التراث الأدبی: العدد الرابع: ٣٨)

وإنّ الأساليب تتنوع بحسب مسالک الشعراء ومضمون الشعر، والأسلوب فی الرثاء يجب أن يكون شاجی الأقاويل، مبكی المعانی، سهل الألفاظ. وحسّان فی استخدامه

الفنّى للغة فى هذا الإبداع الفنّى يستخدم الأسلوب التعبيرى والتقريرى كليهما، وفى كلّ منهما استطاع أن يوصل صوته ويعبّر عن موقفه من عواطفه وحزنه وحنينه. فلجأ إلى الأسلوب التعبيرى فى بيان أحزانه واستدرار دموعه فيقول:[1]

فَبَكِّى رَسولَ اللهِ يا عَينُ عَبْرَةً وَلا أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يجمَدُ
ومَا لَكِ لا تَبْكِينَ ذا النِّعْمَةِ الَّتِى عَلَى النَّاسِ مِنْها سَابِغٌ يتَغَمَّدُ
فَجُودى عَلَيهِ بِالدُّمُوعِ وأَعْوِلى لِفَقْدِ الَّذى لا مِثْلُهُ الدَّهرَ يوجَدُ

ولجأ إلى الأسلوب التقريرى فى أبيات أخرى منها:

ومَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثلَ مُحَمَّدٍ ولا مِثْلُهُ حَتَّى القِيامَةِ يفْقَدُ
عَزيزٌ عَلَيهِ أنْ يحِيدوا عَنِ الهُدَى حريصٌ عَلَى أنْ يسْتَقِيمُوا ويهْتَدُوا

وتابعت هذه المرثية شيئاً من أساليب ما قبل الإسلام وهو التكرار اللفظى فى اللغات فمثلاً نرى حسّان يكرر «رسم الرسول، وآلاء الرسول، وبُوركَ قبرٌ، ويبكّون، والنور، و...» مراراً فى الأبيات التالية:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ ومَعْهَدُ مُنِيرٌ وقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وتَهْمُدُ
عَرَفْتُ بِها رَسمَ الرَّسولِ وعَهْدَهُ وقَبراً بِهِ وَارَاه فى التُّرْبِ مُلْحَدُ
تَذَكَّرُ آلاءِ الرَّسولِ ومَا أرَى لَهَا مُحصِياً نَفْسى فَنَفسِى تَبَلَّدُ
مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَنَّها فَقْدُ أحْمَدٍ فَظَلَّتْ لِآراءِ الرَّسولِ تُعَدِّدُ
فَبُورِكْتَ يا قَبرَ الرسولِ وبُورِكَتْ بِلادٌ ثَوَى فِيها الرَّشِيدُ المُسَدَّدُ

وقد استطاع الشعراء فى صدر الإسلام ابتكار أساليب جديدة أضفت على المرثية جوّاً إسلامياً بهياً وذلك لتأثّرهم بالدين الإسلامى السميح، ومثال ذلك الابتكار دعاء الله ـ سبحانه ـ أن يرحم المرثى، واستدعاء البركة والرحمة للقبر بدلاً من سقيا القبر والأرض واستنزال الغيث بمخاطبة السحاب والسيل. ونرى الشعر أخذ منهجاً إسلامياً لأنّ المرثى بموته لايصير تراباً يختلط بتراب قبره ويتلاشى، بل إنّه يعيش فى قبره حياة برزخية يحتاج فى كل لحظة إلى الرحمة والبركة الربانية. وحسّان يسمّى فقيدَه الرحمةَ والنعمة والنور، الفقيد الذى تبكى عليه السموات والأرض والناس قائلاً:

١. أنظروا إلى القصيدة بكاملها فى شرح ديوان حسّان بن ثابت، ص ١٤٧ وما يليها.

فَبَيناهُـمْ فِـی نِعمـةِ اللهِ بَينَهُـمْ دَلیـلٌ بِـهِ نَهْـجُ الطَّريقـةِ يقصَـدُ
يبَكُّونَ مَن تَبْكِی السَّماواتُ يومَهُ ومَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأرضُ، فَالنَّاسُ أكْمَدُ

(الأنصاری، ۱۹۸۰م: ۱۴۷)

وهناک نماذج کثيرة أخری تدلّ علی عمق وإيمان الشاعر بالعقيدة الإسلامية وانعکاس حلول الرضا والسکينة بدلاً من الشکوی واليأس فی قلبه لأنّ المرثی مخلّدٌ فی جنان الخلد. قائلاً:

مَعَ المُصْطَفـی أرْجُو بِذاکَ جِوارَهُ وفی نَيلِ ذَلِکَ الْيومِ أسْعَی وأجْهَدُ

(المصدر نفسه: ۱۴۹)

وإذا کُنّا فی مقام الحديث عن اللغة والأسلوب فأحقّ بنا أن نشير إلی التأثّر الواضح للمراثی علی العموم ومرثية حسّان علی الخصوص بالقرآن الکريم. نری هنا أنّهم تأثّروا بالقرآن الکريم فی ألفاظه الجميلة السهلة ونظمه الحسن وأسلوبه البديع وبيانه الساحر ولإعجابهم به آثروا الاقتباس من نوره، فحسّان بن ثابت يتأثّر بقوله تعالی: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ۱۲۸) ونری هذا التأثر فی قوله:

عَزِيزٌ عَلَيهِ أنْ يحِيدُوا عَنِ الْهُدَی حَرِيصٌ عَلَی أنْ يسْتَقِيمُوا ويهْتَدُوا

(الأنصاری، ۱۹۸۰م: ۱۴۹)

وبقوله تعالی فی تسمية الرسول بأحمد: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِی مِن بَعْدِی اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ۶) فی قوله:

أطالَتْ وُقُوفاً تَذْرِفُ الْعَينُ جُهْدَها عَلَی طَلَلِ الْقَبـرِ الَّذی فِيهِ أحمَدُ

(الأنصاری، ۱۹۸۰م: ۱۴۶)

وبقوله تعالی: ﴿إِنَّکَ لَعَلَی هُدًی مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ۶۷) ﴿هُو الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَی وَدِينِ الْحَقِّ﴾ (الصف: ۹) فی قوله:

إمامٌ لَهُـمْ يهْدِيهِمُ الحَـقَّ جاهِداً مُعَلِّـمُ صِدْقٍ إنْ يطِيعُوهُ يسْـعُدوا

(الأنصاری، ۱۹۸۰م: ۱۴۸)

وأمّا الصورة: فنلاحظ فی هذه المرثية أنّ حسّانا حاول أن يبين الصورة علی إبراز

دور الرسول فی بناء الأمّة الإسلامية، وذلک يتمّ له من خلال رسم رمزی لهذا المجتمع ومن ثمّ ملاحظة ما عرض له بعد وفاته، معبّراً عنه بطَيبة رمزاً لذلک المجتمع، وقد كانت فيما مضى يثرب مدينة النزاع الموقع بين الأوس والخزرج، ولم تعرف طيبة العيش بسبب الحروب وتردی الأوضاع. أمّا بمجيئه فقد انقلبت الحال، وأصبح جميع الناس على اختلاف أديانهم يعيشون الحياة الطيبة، وقد ربط هذا المجتمع بالسماء عن طريق الوحی.

وفی بداية المرثية يستغلّ الشاعر وقوفه بتلک الآثار ليعرض لنا حزنه وبحكمته وبعد نظره وإيمانه العميق يصوّر لنا أنّ نفسه لن تبلغ إحصاء آلاء الرسول. ويعرض فی أثناء تصاعد القصيدة بقبر الرسول ويتحدّث من خلاله عن حال المؤمنين عن دفنهم الرسول وعودتهم ويستغلّ الشاعر هذا الموقف ليقحم العاطفة هنا، فيقول:

وبُـورِکَ لَحدٌ مِنْکَ ضُمِّـنَ طَيباً　　عَلَيـهِ بَنـاءٌ مِـن صَفيـحٍ مُنَضَّدُ
تَهيـلُ عَلَيـهِ التُّربَ أيـدٍ وأعينٌ　　عَلَيهِ وقَـدْ غَارَتْ بذلِکَ أسْـعُدُ

يريد أنه يوضّح فی الصورة أنّه فی الوقت الذی تهيل الأيدی الترب عليه وقت دفنه تهيل الأعين الدموع عليه وتغور الأسعُدُ. ولكنّ عدداً من صور القصيدة فقدت روحيتها الفنية، فلا تدلّ على ترو فی رسم الصورة وإختيار ألفاظها ولا على تفاعل عاطفی حقيقی، فعلى سبيل المثال لوشغل عن هذه الصورة (عَلَيهِ بَناءٌ مِن صَفيحٍ مُنَضَّدُ) بالنور المنبعث من القبر ورائحته الزكية العطرة، وحاول أن يوظّف رمز القبر الذی أضحى روضة من رياض الجنّة لكان أفضل من هذه الصورة. وهناک صورة أخرى تدلّ على عدم الدقة وهو صورة حزن المسلمين وهم عائدون من دفن رسول الله فی قوله:

وراحُـوا بِحُزنٍ لَيسَ فِيهِـمْ نَبيهُم　　وقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُـمْ ظُهُورٌ وأعْضُدُ

(الأنصاری، ۱۹۸۰م: ۴۷)

ولكنّه قد برع فی خلق صورة تشريک السماء والأرض فی البكاء على الرسول فی قوله:

يَبكُّونَ مَن تَبْكِی السَّماواتُ يومَهُ　　ومَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأرضُ، والنَّاسُ أكْمَدُ

(المصدر نفسه: ۱۴۶)

ووُفِّق فی تصویر بلاد الحرم ومقامه ومسجده بعد وفاته فی قوله:

وأمْسَــتْ بِلادُ الْحَرَمِ وَحْشاً بِقاعُهَا لِغَيبَــةِ ما كانَــتْ مِنَ الْوَحْــيِ تَعْهَدُ
ومَسْــجِدُهُ فَالْمُوحِشَــاتِ لِفَقْــدِهِ خَــلاءٌ لَــهُ فِيــهِ مَقــامٌ ومَقْعَــدُ

(المصدر نفسه: ۱۴۶)

ولحسّان صورتان نادرتان فی رثاء الرسول وهو تصویر بکاء المرسلات علیه رافقاً بالحمد والآخر القول بانقطاع النظیر للرسول الفقید فی الدهر فی هذین البیتین:

فَأَصْبَــحَ مَحمــوداً إلــى اللهِ راجعاً يبَكِّيهِ جَفــنُ المُرْسَــلاتِ ويحْمَدُ
ومَا فَقَــدَ المَاضُــونَ مِثــلَ مُحَمَّدٍ ولا مِثْلُــهُ حَتَّــى القِيامَــةِ يفْقَــدُ

(المصدر نفسه: ۱۴۶)

النتيجة

كان ظهور الإسلام مؤثّراً على حياة العرب وأدبهم، وغير عقائدهم وأفكارهم، وجاء بمعان رفيعة فی الشعر والأدب وهذا التأثير ملحوظ فی کل جوانب حياتهم بما فيها مراثيهم الشعرية، ودخل الدين المبين على الرثاء مفردات لم تكن مألوفة من قبل، فقد اكتسبت المرثية لغات كثيرة، فعقيدة الإسلام بيوم الحساب والحياة الباقية فتحت مشرباً جديداً للشعراء، يشربون منه فشرعوا يتحدّثون عن الجنّةِ ودرجاتها ونعيمها، والنار ودركاتها وسعيرها، فالصلاة، والثواب، والرحمة، والشفاعة، والملائكة، والعرش، والحشر مفردات إسلامية دخلت الرثاء بمجيء الإسلام، وإنّ للتوجّه الإسلامی أثراً كبيراً فی شيوع الألفاظ المدنية والحضارية، وفی المقابل نرى انحصاراً بيناً فی المفردات الجاهلية فی المرثية. وبالإسلام هدمت أسطورة الأيام والشكوى من ريبها وحوادثها، وحلّت محلّها مفردات الصبر والإيمان، ومالت المرثية إلى السهولة وتوجّهت نحو الليونة والتعمّق والتأنّی والتفكّر وسارت صوب الإذعان بالحقيقة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن سعد، ١٣٢٢ق. *الطبقات الكبرى*. المجلد الثانی. لیدن: مطبعة بریل.
ابن منظور، جمال‌الدین محمد بن مکرم. ٢٠٠٠م. *لسان العرب*. الطبعة الخمسون. بیروت: دار ومکتبة الهلال.
أبوذیاب، خلیل. ١٩٩٦م. *شعر الرثاء فی صدر الإسلام. دراسة موضوعة فنیة*. الطبعة الأولی. لبنان. بیروت: مکتبة لبنان ناشرون.
الأصفهانی، أبوالفرج. ٢٠٠٢م. *الأغانی*. بتحقیق قصی الحسین. الطبعة الأولی. بیروت: دار ومکتبة الهلال.
امرؤالقیس، بن حجر الکندی. ٢٠٠١م. *الدیوان*. بشرح عمر فاروق الطباع. الطبعة الأولی. بیروت: دار الأرقم.
الأنصاری، حسّان بن ثابت. ١٩٨٠م. *الدیوان*. بتحقیق عبدالرحمان البرقوقی. الطبعة الأولی. القاهرة: دار الأندلس.
أوس بن حجر، ٢٠٠١م. *الدیوان*. بتحقیق عمر فاروق الطباع. الطبعة الأولی. بیروت: دار الأرقم.
البستانی، فؤاد أفرام. ٢٠٠٠م. *المجانی الحدیثة*. الطبعة الثالثة. قم: منشورات ذوی القربی.
الجمحی، محمد ابن سلام. ١٩٧٤م. *طبقات فحول الشعراء*. بتحقیق محمود شاکر. الطبعة الأولی. القاهرة: مطبعة المدنی.
الخنساء، تماضر بنت عمرو. ٢٠٠٠م. *الدیوان*. بشرح عمر فاروق الطباع. الطبعة الأولی. لبنان. بیروت: دار الأرقم.
الشوری، مصطفی عبدالشافی. ١٩٩٥م. *شعر الرثاء فی العصر الجاهلی. دراسة فنیة*. الطبعة الأولی. بیروت: مکتبة لبنان ناشرون.
شوقی، ضیف. ١٩٩٥م. *الرثاء*. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار المعارف.
الضّبی، المفضل. ١٩٩٥م. *المفضلیات*. بتحقیق أحمد شاکر وعبدالسلام هارون. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار المعارف.
القرطبی، ابن عبدالعزیز. ١٣١٨ق. *الاستیعاب فی معرفة الأصحاب*. الطبعة الأولی. حیدرآباد: لانا.
القطّ، عبدالقادر. ١٩٧٩م. *فی الشعر الإسلامی والأموی*. الطبعة الرابعة. بیروت: دار النهضة العربیة.
القیروانی، أبوالحسن بن رشیق. ٢٠٠٤م. *العمدة فی محاسن الشعر وآدابه ونقده*. بتحقیق عبدالحمید هنداوی .المجلد الثانی .بیروت :المکتبة العصریة.
کعب بن مالک، ١٩٦٥م. *الدیوان*. بتحقیق سامی مکّی العانی. الطبعة الثانیة. بغداد: المعارف.
النویهی، محمد. ١٩٩٩م. *منهج فی دراسة الشعر الجاهلی وتقویمه*. الطبعة الثانیة. القاهرة: الدار القومیة للطباعة والنشر.

المجلات

فصلية التراث الأدبی، ۱۳۸۸ش. السنة الأولی. العدد الرابع. إيران: جامعة آزاد الإسلامية فرع جيرفت.
مقال عنوانه: «الأسلوب والأسلوبية فی المعارضات»، لإنعام پنکه ساز.
مجلة الأدب المقارن، ۱۳۸۸ش. السنة الثالثة. العدد التاسع. إيران: جامعة آزاد الإسلامية فرع جيرفت.
مقال عنوانه: «بازتاب أمثال قرآن در أشعار ديوان فيض»، لعلی‌رضا ميرزا محمد.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی